الأدب فى سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التى غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٩ —

أشعاره فى هورتون :

وكانت قصيدة ملتن الثالثة فى هورتون هى الغنائية المسرحية أركادس ، وهى فى الواقع نبذة من غنائية مسرحية فهى لا تعدو مائتى سطر ، ويمكن أن نعدها قصيدة مدح لولا هذه الصورة المسرحية التى وضعها فيها الشاعر .

نظم ملتن هذه الغنائية الصغيرة سنة ١٦٣٤ تكريما لسيدة عظيمة علت بها السن هى كونتس سلسبرى ؛ وقد مثلها بين يديها أحفادها وهم أبناء إيرل بردجووتر وابنته ؛ ووضع الحانها رجل من أشهر ملحنى العصر جميعا هو لو وكان صديقا حميما لملتن ، ما ذهب ملتن إلى لندن مرة إلا قضى عنده ساعات يستمتع بموسيقاه ، وكان ملتن يقدره حق قدره ويعجب بألحانه إعجابه هو بشعر صديقه الشاعر . وتبدأ المسرحية بأغنية صغيرة مدح للكونتس يتقدم بها منشدين بين يديها أحفادها من بنين وبنات فى ملابس ريفية ، ويبلغ ملتن فى هذه الأغنية أعلى درجات الإجادة والأمتاع؛ فثمة ألفاظ حلوة ولحن بديع ومعان جليلة تكافىء مقام السيدة التى يمتدحها . وبينما يتقدم المنشدون والمنشدات بين يدى السيدة يظهر جنى الغابة فيتجه نحوهم ويوجه إليهم الحديث ممتدحا السيدة فى شعر من النسق العالى بالغ الروعة والسحر ؛ ويختتم الجنى حديثه بأغنيتين إحداهما موجهة إليهم ، والأخرى موجهة للقرويين والرعاة جميعا ، وفيها يثنى الجنى على السيدة ويتغنى بمجدها وأنعمها .

* * *

وفى سنة ١٦٣٤ نظم ملتن قصيدته الرابعة فى هورتون فقد طلب لو إلى صديقه الشاعر نظم غنائية مسرحية أخرى لتكريم إيرل بردجووتر بمناسبة ولايته المنصب الرفيع الذى كان قد رقى إليه منذ ثلاث سنوات وهو منصب الرئيس اللورد لمجلس مقاطعة ويلز وذهابه ليقيم فى قلعة لادلو . ولقد أقيمت الحفلات للورد فى جهات كثيرة وبالغ عشيرته وأصدقاؤه فى تكريمه ، ومن هؤلاء لو الملحن النابغة ، وكان لو أستاذ الموسيقى لابنى اللورد وابنته ، ولم يقتصر على تلحين الأغانى فى هذه الغنائية المسرحية ، بل اشترك كذلك فى تمثيلها ...

وكانت أليس ابنة اللورد وهى فتاة ناهد فى نحو الخامسة عشرة من عمرها ، وأخواها وهما دونها فى العمر أهم الشخصيات فى تمثيل هذه الغنائية .

تخيل الشاعر سيدة تاهت فى مسالك الغابة وأحراجها وهى فى طريقها وأخويها إلى قلعة أبيها ، وظلت تبحث عبثا عن أخويها وظلا يبحثان عنها فى غير جدوى ، وتمثل لها كومس الجنى الشهوانى الساحر فى زى أحد القرويين ، وتظاهر أنه يهديها السبيل ، ثم إذا هو غوى مبين أخذ يحتال عليها ويراودها عن نفسها فاستعصمت ، ولكنه دأب فى غوايته حتى حضر أخواها فتغلبا على كومس وقبيله إلا أنهما ألفيا أختهما لا تستطيع التحرك بما صنع بها سحر كومس فأخذتهما الحيرة ، ولم يخرجها من ورطتها إلا سابرينا إحدى العذارى الخرافية التى أبطلت سحر كومس وهى من خلق ملتن ؛ وتنطلق الفتاة وأخواها بعد ذلك

إلى القلعة ، وكان يحمى الفتاة ويعصمها من الزلل من البداية حتى النهاية من عالم الأرواح روح ساهر عليها يتنكر فى زى أحد الرعاة ، وكان لهذا الروح فضل عظيم فى القضاء على كومسى ، وبعد انتصاره انطلق إلى عالمه الذى هبط منه .

هذا هو موضوع الغنائية ، ولقد تأثر ملتن فى بناء هذا الموضوع على هذه الصورة بما قر فى خاطره من قراءاته المتنوعة الواسعة ، فالشبه عظيم بين غنائيته فى بنائها وبين « قصة الزوجات المجائز » لبيل ، وملخص هذه القصة أن سيدة حملت من تسالى إلى بريتن بسحر ساحر لعين يسمى ساكربنت تعلم من أمه ميرو وهى ساحرة شهيرة كيف يغير صور الناس ، وتبقى السيدة فى برتين مسحورة عن نفسها تنسى ذاتها كما تنسى أصدقاءها ، ويبحث عنها إخوتها فيرد عليهم صدى يتبعونه حتى يقعوا فى يد ساكر بنت فيسحرهم ويسخرهم فى أداء أعمال حقيرة . وينجى السيدة حبيبها بعد ذلك وقد اطلع على سر ساكربنت على يد عفريت رجل فقير كان قد صاحبه . ويموت الساحر ولكن تبقى السيدة مسحورة ولن يفك السحر عنها حتى يُحطم وعاء زجاجى له بيد أنثى لا هى عذراء ولا زوجة ولا أرملة ، وينطفىء بتحطيمه ضوء كان يلقيه ، وبعد لأى توجد الأنثى المطلوبة فيحطم الوعاء وينطفىء الضوء ، وتنطلق السيدة المسحورة وغيرها من فرائس الساحر ...

وثمة شبه كذلك بين غنائية ملتن ومسرحية جون فلتشر « الراعية الوفية » وهى مسرحية ريفية كتبها صاحبها سنة ١٦١٠ وأعاد نشرها سنة ١٦٣٤ وهى السنة التى كتب فيها ملتن غنائيته. ومن هذه المسرحية أخذ ملتن فكرة انتصار العفة فى النهاية كما أخذ فكرة الروح الحارس الذى يحمى العذراء . فى المسرحية سيدة كانت عفتها فى خطر لولا هذا الروح الحامى . وفى مسرحية فلتشر يبرز إله النهر فينجى العذراء كما تنجى سابرينا عذراء غنائية ملتن . ويستعمل فى كومسى نبات لشفاء الجروح كما يستعمل نبات غيره فى الراعية الوفية ، وفوق ذلك تنطوى غنائية ملتن على فقرات لها أشباه فى المعنى والفكرة فى مسرحية فلتشر .

أما شخصية كومسى الذى سميت باسمه الغنائية ، فهى من ابتكار ملتن فقد جعل لكومسى أبوين من الميثولوجيا، فأما أبوه فهو باخوس إله الخمر ، وأما أمه فهى سيرس الساحرة التى كانت تحيل من يشرب سائلا لها إلى حيوان ، وعلى ذلك فقد جمع كومسى بين المرح والعربدة ورثهما عن أبيه ، وبين السحر ورثه عن أمه ، وامتاز كومسى عن أمه بأنه لا يحيل أشكال الناس إلى حيوانات فحسب ، ولكنه يغير عقولهم حسبما يشاء فيوحى إليهم ما فى نفسه من شهوة وفسوق .

وتعج غنائية ملتن بتلميحات مأخوذة كلها من ميثولوجيا الأغريق والرومان ، كما أن فيها ألفاظا وعبارات وصفات تشبه نظائرها فى شعر من سبقه من شعراء قومه ، وعلى الأخص سبنسر وشكسبير .

أما فلسفة ملتن فى الغنائية ، فمشتقة من فلسفة أفلاطون وآرائه فى الفضيلة . وقد تعمق ملتن دراسة هذه الفلسفة وأحبها حباً شديداً ، إذ صادفت هوى فى نفسه ، وقد كانت نفسه حريصة على العفة كوسيلة إلى السمو الروحى والبياتى .

ولكن على الرغم من هذا كله نجد الغنائية فى جملتها وعليها طابع ملتن ، فهى ملتنية الروح واللفظ والأسلوب والموسيقى والفلسفة ، وفيها سمات عبقريته وشواهد قوته ، بحيث لا يمكن ردها إلا إليه كما ترد آثار فحول الشعراء إليهم بمجرد سماعها ، ولو لم يذكر أول الأمر أنها لهم، ففى أماراتها وخصائصها وروحها ما يشير إليهم إشارة تغنى عن ذكر الإسم ، وتلك ميزة يختص بها هؤلاء الفحول ، فالشاعر منهم أصدق أصالة وأبرز فناً من أن يضيع فى غيره ، وتلك الميزة هى مقياس خلوده ، إذ لولاها لكان كغيره من سائر الناس ، ومن هؤلاء الفحول الأفذاذ « ملتن » صاحب هذه الغنائية يومئذ وصاحب الآية الكبرى يوم على الفردوس المفقود ...

مثلت أليس ابنة اللورد السيدة التى ضلت فى الغابة ، ومثل أخواها دور الأخوين، أما اللحن (لو) فقد أخذ دور الروح الحارس، ومثل أحد الشبان دور كومسى ، كما مثلت إحدى الفتيات دور سابرينا ، وهؤلاء هم أشخاص الغنائية جميعاً ، فهى كما ترى نوع من المسرحيات القليلة الحوادث والأشخاص تعنى بالموسيقى والشعر وتقوم فيها الأرواح والأشباح إلى جانب الناس .

تبدأ الغنائية بمنظر يمثل غابة وحشية ، ثم يظهر على المسرح

أو يهبط عليه الروح الحارس ، فيتكلم فى شعر رقيق بليغ عن موطنه ورهطه فى عالم السماوات ، ويشير إلى دنيا الناس وما فيها من آثام بقوله : «هذه البقعة المظلمة التى يسميها الناس الأرض» ويثنى على الناس حياتهم المضطربة وغفلتهم عما تهيئه لهم الفضيلة بعد ارتحالهم من عالم الفناء ، ولكنه يغتبط بأن بين الناس قلة يطمحون إلى وضع أيديهم على ذلك المفتاح الذهبى الذى يفتح لهم قصر الخلود ؛ ولهذه القلة مهبطه ومن أجلها رسالته ، ثم يشير إلى اللورد بأنه من أنصاف الآلهة الذين يحكمون فى الجزر مستمدين سلطانهم من نبتيون إله الماء ، ويمتدح خصاله ويتحدث عن ابنيه وبنته وعن مسيرهم فى الغابة ، وأنه أرسل من قبل جوف كبير الآلهة ليحميهم فى ظلمات الغابة ، ومم يحميهم ؟ هكذا يتساءل ليسترعى الأسماع ، ثم يقول : إنه سوف يقص ما لم يرد مثله فى شعر ولا فى قصص ، فى كوخ كان ذلك أو فى قصر . ثم يذكر فى إثر ذلك كومسى ومولده وما ورثه عن أبيه وعن أمه ، وما هو فى مقدوره من السحر ، فيصور للأذهان صورة عجيبة حقاً ، ويشوقها إلى ما عسى أن يقع على يد كومسى ، ولكن جوف يكف شره عمن يرعاهم من الناس ، ولذلك أرسل هذا الروح فى مثل لمحة النجم ليحمى هؤلاء المدلجين ، فليتنكر فى زى شخص يعرفونه ، وليكن هذا الشخص هو أستاذ الموسيقى ، وهنا يثنى الروح أعظم الثناء على فنه ووفائه ؛ ثم يرهف سمعه ويقول : إنه يسمع خطوات بغيضة تقترب ، فعليه أن يختفى ؛ وبهذه الوسيلة يعبر ملتن عما يريد أن يقول عن اللورد وعن صديقه الموسيقى على لسان ذلك الروح فى فيض من الشعر المرسل الرصين الرائع الذى يملك الأنفس عذوبة جرس وحلاوة معنى ، والخيال الساحر البارع الذى يذهل السامعين عن أنفسهم وعن عالمهم برهة ..

ويظهر كومسى فى المنظر الثانى وفى إحدى يديه عصاه السحرية وفى الأخرى زجاجته ، وفى إثره يمشى قبيله تمثل رؤوسهم أنماطاً من الوحوش ، ولكن أجسامهم آدمية ، ومنهم الذكور ومنهم الأناث ، ويلبسون جميعاً ملابس براقة ، ويقبلون فى زياط وجلبة يتواثبون ويتراقصون وفى أيديهم المشاعل ، وتسكن ضوضاؤهم بعد برهة ، ويتكلم كومسى وقد سكتوا ، فيصف مولد الليل ، ويجرى الشاعر على لسانه وصفاً رائعاً لمغرب الشمس فى شعر مقفى جميل اللحن ، فالنجم الذى يوحى إلى الرعاة موعد العودة بقطعانهم يتخذ سمته فى السماء ، وعجلة النهار الذهبية تبرد فى ماء الأطلنطى ، والشمس على الأفق الغربى تطلق آخر شعاع لها صوب القبة قد تنشاها الطفل ، ثم تهبط متخذة طريقها إلى غرفتها الشرقية فى الجهة الأخرى ...

ويدعو كومسى قبيله بعد هذا الوصف إلى اللعب واللهو تحت أستار الظلام ، ويصف ما عسى أن يجرى فى الليل من صور المرح ، ويشير إلى الناس وكيف يغطون فى نومهم ومعهم مواعظهم ونظراتهم وحكمهم فهم من الطين ؛ ولكن كومسى وقبيله من النار فهم لذلك أكثر خفة وانطلاقا ، والليل كفيل أن ينطى لهوهم ولعبهم ، ومادام الصباح الذى يكشف نوره العيوب لا يزال بعيداً ، فهلم إلى اللهو والزياط والمجون ؛ ويدعو كومسى أتباعه أن يمسك كل منهم بيد صاحبه ثم ليضربوا الأرض بأقدامهم راقصين ... ويأخذ هؤلاء فى رقصهم لاهين عابثين ، ولكن كومسى لا يلبث أن يدعوهم إلى السكون ثم الاختفاء فانه يسمع أقداما قريبة وينبئه سحره أنها عذراء ضلت فى متاهات الغابة ، ويتحدث فرحا عما يعده لها من السحر ويصف كيف يحتال عليها وكيف يتنكر لها فى زى فلاح تأخر به سعيه من أجل عيشه عن العودة إلى كنه حتى هذه الساعة ، ثم يعلن إلى قبيله أنه سوف يسمع ماذا تقول العذراء .

وتتقدم السيدة فتظهر على المسرح ، وتحدث نفسها قائلة إنها سمعت لتوها جلبة وأصوات مرح وغناء ومزمارا كزامير الرعاة والفلاحين ، وتقول إنها توجس خيفة من عبث هؤلاء وتوقحهم ، ولكن ماذا عساها تصنع ، وإلى أى طريق فى متاهات الغابة تلوى وجهها عما تحذر ؛ وتذكر أخويها قائلة بأنهما تركاها لتستريح وقد بلغ بها الجهد وذهبا ليحضرا لها شيئاً يمسك صلبها من ثمار الغابة وما تظن أنهما قد ضلا ، وقد سرقهما الظلام منها . ثم تلتفت حولها وتقول إنها تظن أن هذا هو المكان الذى كان ينبعث منه الغناء والمرح ، ولكنها لا تجد إلا الظلام وحده ، وتهجس فى نفسها المخاوف فكأنها تسمع أصوات رجال ينادونها وترى أشباحا تهتف بها وتتخيل ألسنة هوائية تنطلق بأسماء رجال ، وهذه أشياء كفيلة بأن تلقى الخوف فى النفوس ولكنها لا تزعزع